الأم

تأليف الإمام أبى عبد الله

محمد بن إدريس الشافعي

١٥٠ — ٢٠٤

الجزء الأول

أشرف على طبعه وباشر تصحيحه

محمد زهري النجار

من علماء الأزهر

[تنبيه : قد جعلنا مختصر المزنى آخر الكتاب تعميما للفائدة]

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد إمبابي المنياوي
٩ شارع الصنادقية بالأزهر

شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٠ شارع المستعلى بالله - الدراسة

S5 [illegible]
V. 1-2

923184

الطّبعَة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . وصلوات الله وسلامه على سيد الخلق وإمام الحق ، قائد الغر المحجلين ، وشفيع المذنبين بإذن من الله يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته البررة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل نصرة هذا الدين المبين .

أما بعد فلا يخفى على ذوى العقول والبصائر النيرة مكانة الفقه بالنسبة لسائر العلوم فهو الذى أشاد الله بشرفه فى كتابه حيث قال .

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » لذلك دأب العلماء وتسابقوا فى القيام بالرحلات العلمية ليفوزوا بالخير الذى سمعوا البشارة به من النبى صلى الله عليه وآله وسلم حين تحدث عن مكانة الفقه وقيمته بقوله « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » فأكثروا التنقل فى البلاد للقاء العلماء والأخذ عنهم ، ومن أبرز الأئمة الذين أكثروا من التطواف والرحلات فى مختلف الأقطار الإمام الشافعى رضى الله عنه . فقام برحلته العلمية بادىء بدء إلى الإمام مالك فى المدينة فلما نزع عقله ولبه من علومه رحل إلى العراق فطوّف هناك فى المدن ولقى الإمام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وأبا يوسف القاضى وغيرهما ثم رحل إلى البلاد الفارسية فالتقى بعلمائها ثم طاف شمال العراق فاخترق ساحل الفرات وبعض المدن السورية حتى ألقى عصا التسيار بمدينة « الرملة » كل هذا ولم يجاوز العشرين سنة من عمره فما فتىء بعد مدة وجيزة من إقامته فى الرملة أن اعتزم الرحلة ثانيا إلى الإمام مالك وبقى معه فى المدينة إلى أن مات ثم توجه إلى اليمن فاكتسب هناك علم الفراسة وازداد تفقها ثم اعتقل بتهمة التشيع للعلويين ضد العباسيين فكانت نتيجة التحقيق أن ظهرت براءته فأطلقه الخليفة هارون الرشيد وعرف له فضله ونبوغه فى شتى العلوم لا سيما فقه الكتاب والسنة ونفوذ النظر فيهما مع دقة الاستنباط وقوة العارضة ونور البصيرة والإبداع فى إقامة الحجة ، فلم يقو أحد على مناظرته ، والذى أوصل الشافعى إلى هذه الدرجة تلك الخطوات المحكمة التى انتهجها فى حياته العلمية ، ذلك أنه تأدب بأدب البادية ووقف على علوم اللغة العربية فصيحها وغريبها وحفظ أشعار العرب وأيامهم فأصبح حجة فى اللغة وخصوصا أشعار الهذليين .

ثم إنه تلقى علوم أهل الحضر واجتمع له علم أهل الرأى وعلم أهل الحديث فتصرف فى ذلك حتى أصل الأصول وقعد القواعد ،فعلا ذكره واشتهر أمره، حتى صار أعجوبة الدنيا فى عصره ، وأخذ بعد ذلك يؤلف المؤلفات ويودع حصيلته العلمية فى كتب خاصة :

ومن أجمع تلك المؤلفات التى وصلت إلينا كتاب « الأم » الذى نقدم له هذه المقدمة المتواضعة ، فسيرى القارىء فيه علما غزيرا ، يتعلم منه كيف يفكر . وكيف يحتج وكيف يناظر . وكيف يتعلم حرية الرأى فرحم الله الشافعى حيث رسم للناس الطريق السوى للاجتهاد ونبذ التقليد ، فملأ طباق الأرض علماً .

ترجمته

نقلا عن تاريخ الشافعي بقلمه ، رواية أبي بكر محمد بن المنذر ، وعن مناقب الشافعي للرازي وعن شذرات الذهب لابن العماد ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ورحلة الإمام الشافعي ، لـ « منير أدهم » .

اسمه : — محمد، ويكنى ، أبو عبد الله .

نسبه من جهة أبيه: — هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف .

نسبه من جهة أمه : — القول المشهور أن أم الشافعي كانت امرأة من الأزد ، وروى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأزد أزد الله » وهذا يدل على مزيد الشرف بسبب هذه الإضافة الدالة على الاختصاص كقولنا « بيت الله » و « ناقة الله » .

زواجه ومتى كان : — تزوج الشافعي بالسيدة حميدة بنت نافع حفيدة عثمان بن عفان بعد وفاة الإمام مالك سنة ١٩٧ هـ وكان عمره إذ ذاك ما يقرب من ثلاثين سنة كما أنه كانت له سرية من الإماء .

أولاده : — رزق من امرأته العثمانية أبو عثمان محمد ، وابنتان ، فاطمة وزينب وقد ارتقى أبو عثمان محمد في المناصب حتى كان قاضيا لمدينة حلب .

ورزق من سريته ابن آخر يقال له: الحسن بن محمد بن إدريس، مات وهو طفل .

صفاته وحليته : — كان رجلا طويلا حسن الخلق محببا إلى الناس نظيف الثياب فصيح اللسان شديد المهابة كثير الإحسان إلى الحاق وكان يستعمل الخضاب بالحمرة عملا بالسنة وكان جميل الصوت في القراءة حتى إن علماء مكة كانوا — وهو في الثالثة عشرة من العمر — إذا أرادوا البكاء من خشية الله اجتمعوا وقالوا :هيا بنا إلى ذلك الصبي المطلبي ليسمعنا القرآن فيبكينا ، فإذا جاءوا وسمعوه تساقطوا بين يديه من كثرة البكاء ، وكان إذا رأى منهم ذلك أمسك عن القراءة شفقة عليهم .

متى وأين ولد : — في شهر رجب من سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م ولدت السيدة فاطمة — أم حبيبة — الأزدية غلاماً سمته محمدا (وهو الإمام الشافعي) .

أما والده المذكور فكان رجلا حجازيا فقيراً ، خرج مهاجراً من مكة إلى الشام وأقام بـ « غزة » و « عسقلان » ببلاد فلسطين ثم مات بعد ولادة الشافعي بقليل فكفلته أمه .

كبر الغلام وبلغ من العمر سنتين وأصبح قرة عين والدته ، فرأت أمه أن تحمله إلى مكة المكرمة صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في « غزة » ونزلت بجوار الحرم بحيّ يقال له « شعب الخيف » .

بدء تعلمه: — ولما ترعرع أرسلته أمه إلى الكتاب ولما لم يكن فى طاقة أهله القيام بنفقات تعليمه أهمله المعلم وانصرف عنه :

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

إلا أن هذا التقصير من المعلم كان سببا فى نبوغ الصبي لأنه اجتهد أن يكون دائما — وقت الدرس — قريباً من المعلم وكان يستوعب بحافظته النادرة جميع ما يحفظه المعلم للصبيان حتى إذا ذهب المعلم لقضاء حاجة أخذ الشافعى يحفظ التلاميذ ما حفظه من المعلم ، وبهذه الوسيلة قويت حافظة الإمام الشافعى تدريجا ، فأحبه التلاميذ والتفوا حوله ورفعوا مكانته وصاروا طوع أمره .

ولما رأى المعلم من الشافعى هذه الحال وأنه يجنى من ورائه أضعاف ما كان يطمع فيه من الأجر ، صرف عنه المطالبة بالمصروفات واعتبره فى كتابه مجاناً .

ولما بلغ الشافعى من العمر سبع أو تسع سنوات كان قد أتم حفظ القرآن الكريم كله ، فرأى أنه لا فائدة من بقائه فى الكتاب فتركه ودخل المسجد الحرام وأقبل على علوم اللغة ودراستها أياما فبرع فيها كلها . وبرع فى لهجات العرب بسبب تلقيه اللغة عن شتى قبائل البادية فلما حصل له من ذلك الحظ الأوفر قيل له : لو ضممت إلى ذلك ، الفقه وعلوم القرآن والحديث ؟! فانصرف إليها.

شيوخه بمكة : — دخل المسجد الحرام وصار يجالس العلماء ويحفظ الحديث وعلوم القرآن ،فقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين وقرأ الحديث على سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجى ، وسعيد بن سالم القداح ، وداود بن عبد الرحمن العطار ، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى رواد .

شيوخه بالمدينة : — وتلقى العلم بالسنة فى المدينة على الإمام مالك بن أنس ، وإبراهيم بن سعد الأنصارى وعبد العزيز بن محمد الدراوردى ، وإبراهيم بن أبى يحيى الأسامى ، ومحمد بن سعيد بن أبى فديك، وعبد الله بن نافع الصائغ .

شيوخه باليمن : — وسمع الحديث والفقه فى اليمن ، من مطرف بن مازن ، وهشام بن يوسف قاضى « صنعاء » وعمرو بن أبى سلمة صاحب الأوزاعى ، ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد .

شيوخه بالعراق : — وسمع الحديث والفقه وعلوم القرآن فى العراق من وكيع بن الجراح ، وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفيان ، وإسماعيل بن علية ، وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصريان

فيكون عدد شيوخه على هذا — تسعة عشرة ،خمسة من مكة ، وستة من المدينة ،وأربعة من اليمن . وأربعة من العراق. هذا ما أفاده الرازى فى مناقب الإمام الشافعى .

تلاميذه : — نبغ على الشافعى كثير من الناس ، فى مقدمتهم أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، والحسن ابن محمد الصباح الزعفرانى ، والحسين الكرابيسى ، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبى ، وأبو إبراهيم إسماعيل ابن يحيى المزنى ، وأبو محمد الربيع بن سليمان المرادى ، والربيع بن سليمان الجيزى ، وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى ،وأبو حفص حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبى ، وأبو يوسف يونس بن عبد الأعلى ، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم المصرى ،وعبد الله بن الزبير الحميدى .

رحلاته العلمية : — كانت الرحلة — على ما فيها من المشاق — فى سبيل تلقى العلم — ديدن العلماء، حيث يكون التلاقى بين رواد العلم والعلماء وتحصل البحور فى العلم. فلذا نرى الإمام الشافعى ينهج هذا السبيل وأول رحلاته كانت إلى المدينة لما سمع بالإمام مالك ، فسمع الموطأ وحفظه ولقى من الإمام مالك إكراماً وإجلالا حتى إنه أجلسه فى مجلسه وكلفه أن يقرأ الموطأ على الناس ويمليه عليهم ، فأقام هكذا ضيفا عند الإمام مالك ثمانية أشهر .

رحلته الأولى إلى بغداد : كان من عادة المصريين أن يتوجهوا إلى المدينة بعد أداء فريضة الحج للصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولسماع الموطأ على الإمام مالك . قال الشافعى: فأمليت الموطأ عليهم حفظاً ، منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب بن القاسم (قال الربيع : وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد) ثم قدم بعد ذلك أهل العراق المسجد للصلاة فيه وزائرين نبيهم .

قال الشافعى : فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه ، نظيف الثياب ، حسن الصلاة ، فتوسمت فيه خيراً ، فسألته عن اسمه ، فأخبرنى ، وسألته عن بلده فقال لى : العراق .

قال الشافعى : فقلت ، أى العراق ؟ فقال : فى الكوفة . فقلت : من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله عز وجل والمفتى بأخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال لى : محمد بن الحسن ، وأبو يوسف صاحبا أبى حنيفة .

قال الشافعى : فقلت : ومتى عزمتم تظعنون ؟ فقال لى : غداة غد عند انفجار الفجر .

فعدت إلى مالك فقلت له : قد خرجت من مكة فى طلب العلم بغير استئذان العجوز ، فأعود إليها أو أرحل فى طلب العلم ؟ فقال لى : العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة ، ألم تعلم بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب ؟

قال الشافعى : فلما أزمعت على السفر زودنى مالك بصاع من أقط وصاع من شعير وصاع من تمر وسقاء ماء . فلما كان السحر وانفجر الفجر حمل بعض الأداوة وسار معى مشيعا إلى البقيع ، فصاح بعلوّ صوته : من معه كرى راحلة إلى الكوفة ؟ فأقبلت عليه فقلت له : لم تكترى ولا شىء معك ولا شىء معى ؟ فقال لى : لما انصرفت البارحة عنك بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع علىّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت عبد الرحمن بن القاسم المصرى ، فسألنى قبول هديته فقبلتها . فدفع إلىّ صرة فيها مائة مثقال ، وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالى .

وبعد أربعة وعشرين يوما وصل ركب الحاج العراقى إلى الكوفة . وهناك اجتمع بالإمامين ، أبى يوسف ، ومحمد ، وحصل بين الشافعى وبينهما محادثات ومناظرات علمية ، لا يتسع المقام لذكر تفاصيلها .

وقد أكرم الإمام محمد مثوى الشافعى ، وعرف قدره ، وأكرم ضيافته .

أقام الشافعى مدة فى الكوفة ضيفا على محمد بن الحسن نسخ فى خلالها كثيرا من الكتب ، وتلقى العلم عليه وكتب عنه حمل بعير من الكتب .

ثم بدا للشافعى أن يطوّف فى بلاد فارس وما حولها من بلاد الأعاجم وأن يطوف البلاد العراقية فدخل بغداد وغيرها ، ثم سافر إلى ديار ربيعة ومضر ومنها رحل إلى شمال العراق حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم

(الأناضول) وعرج على« حران » وأقام بها زمنا ، ثم سافر إلى فلسطين وأقام بـ (الرملة) واستغرقت هذه الرحلة سنتين بدأها سنة ١٧٢ هـ وانتهت سنة ١٧٤ هـ ازداد فيها علما ووقف على أمور العباد وعرف طبائع سكان تلك البلاد التى زارها وأخلاقهم وعاداتهم ، ولغاتهم كما تعرف على كثير ممن أملى عليهم الموطأ وهو فى المدينة فكانوا خير معين له فى هذه السياحة .

رحلته الثانية إلى المدينة : وبينما هو فى « الرملة » ذات يوم إذ أقبل ركب المدينة من الحجاز فسألهم الشافعى عن مالك فقالوا : إنه بخير وقد اتسعت أرزاقه فاشتاق الشافعى لرؤية الإمام مالك فى حال غناه كما رآه فى حال فقره من المال ، فركب راحلته ووصل المدينة بعد سبعة وعشرين يوما . فوافق دخوله ساعة العصر ١٧٤ هـ وقصد مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وصلى العصر فرأى كرسيا من الحديد عليه مخدة وحول الكرسى نحو أربعمائة دفتر ، وبينما هو كذلك إذ رأى مالكا داخلا وقد فاح عطره فى المسجد وحوله جماعة يحملون ذيله حتى جلس على الكرسى ، ثم طرح مسألة إثر مسألة فى جراح العمد على الموجودين فلم يجب أحد . فضاق صدر الشافعى ونظر إلى رجل كان بجانبه وهمس إليه فى أذنه بالجواب ، فقال الرجل : الجواب كذا وكذا كما سمعه من الشافعى ، ولما تكررت إجابة هذا الرجل بالصواب فى كل مسألة قال له مالك : من أين لك هذا العلم ؟ فقال الرجل : إن بجانبي شابا يقول لى : الجواب كذا وكذا ، فاستدعى الإمام مالك ذلك الشاب فإذا هو الشافعى ، فضمه مالك إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال له : أتمم أنت هذا الباب .

وبعد أن أتم الشافعى الدرس أخذه الإمام مالك إلى بيته ، ولم يمض على عودة الشافعى إلى المدينة زمن طويل حتى جاءت الأخبار من مصر بوفاة الإمام الليث بن سعد فى نصف شعبان سنة ١٧٥ هـ فحزن لوفاته مالك والشافعى .

أقام الشافعى بعد ذلك فى المدينة المنورة أربع سنوات وأشهرا ملحوظا بعين الإمام مالك إلى أن توفى الإمام مالك فى شهر ربيع الأول سنة ١٩٧ هـ ودفن بالبقيع وبقى الشافعى فى المدينة ولا معين له إلا الله تعالى، وكان عمره عامئذ ٢٩ سنة تقريبا .

رحلته إلى اليمن : — وصادف — بعد وفاة الإمام مالك — أن جاء والى اليمن إلى المدينة فكلمه جماعة من قريش ، فأخذه إلى صنعاء اليمن وقلده عملا مستقلا أحسن الشافعى إدارته ونال ثناء الناس عليه وأحبه الوالى وتعلم علم الفراسة من أهل اليمن الذين كانوا يجيدون فقهها حتى تفوق فيه .

محنته وأسبابها : — وهى الرحلة الثانية إلى العراق لما لمع نجمه فى اليمن نظراً لعلوّ كعبه فى مختلف العلوم وما أحرزه من المكانة العالية عند الوالى حسده الحاسدون وحقد عليه الحاقدون ، فوشوا به عند الخليفة هارون الرشيد فى بغداد واتهموه بأنه رئيس حزب العلويين وأنه يدعو إلى عبد الله بن المحض الحسن المثنى بن الحسين السبط .

فأرسل هارون الرشيد أحد قواده إلى اليمن ، فبعث له ذلك القائد بكتاب يخوفه من العلويين ويذكر له فيه الشافعى ويقول عنه :إنه يعمل بلسانه مالا يقدر المقاتل عليه بحسامه وسنانه ،وإن أردت- ياأمير المؤمنين - أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك

فبعث الرشيد إلى والى اليمن يأمره بأن يحمل العلويين إلى بغداد ومعهم الشافعى مكبلا بالحديد .

فاعتقلهم الوالى ومعهم الشافعى، ووضع فى رجليه الحديد تنفيذا لأمر الخليفة ،وأرسلهم إلى بغداد، فدخلوها فى غسق الليل

وأحضروهم بين يدى هارون الرشيد وكان جالساً وراء ستارة وكانوا يقدمون إليه واحدا واحداً ، وكل من تقدم منهم قطع رأسه . كل ذلك والشافعى يدعو ربه بدعائه المشهور عنه « اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير » يكرره مراراً .

ولما جاء دوره حملوه إلى الخليفة وهو مثقل بالحديد ، فرمى من بحضرة الخليفة بأبصارهم إليه .

فقال الشافعى : السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته . ولم يقل « ورحمة الله » .

فقال الرشيد : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها ، ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها ، ومن العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى .

فقال الشافعى : إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) وهو الذى إذا وعد وفى ، فقد مكنك فى أرضه وأمنى بعد خوفى حيث رددت على السلام بقولك « وعليك رحمة الله » فقد شملتنى رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : وما عذرك من بعد ما ظهر أن صاحبك (يريد عبد الله بن الحسن) طغى علينا وبغى واتبعه الأرذلون وكنت أنت الرئيس عليهم .

فقال الشافعى : أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف ، لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب ، فإن جدت علىَّ بفكه عن قدمى جثيت على ركبتى كسيرة آبائى عند آبائك وأفصحت عن نفسى ، وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدى السفلى والله غنى حميد .

فالتفت الرشيد إلى غلامه « سراج » وقال له : حُلّ عنه فأخذ سراج ما فى قدميه من الحديد فجثى الشافعى على ركبتيه وقال (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) حاشا لله أن أكون ذلك الرجل ، لقد أفك المبلغ فيما بلغك به ، إن لى حرمة الإسلام وذمة النسب ، وكفى بهما وسيلة ، وأنت أحق من أخذ بأدب كتاب الله ، أنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذاب عن دينه ، المحامى عن ملته .

فتهلل وجه الرشيد ثم قال : ليفرج روعك فإنا نراعى حق قرابتك وعلمك ثم أمره بالقعود فقعد .

وقال الرشيد : كيف علمك ؟ يا شافعى ــ بكتاب الله عز وجل ؟ فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به .

فقال الشافعى : عن أى كتاب من كتب الله تعالى تسألنى يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله قد أنزل كتبا كثيرة .

قال الرشيد : أحسنت . لكن إنما سألت عن كتاب الله تعالى المنزل على ابن عمى محمد رسول صلى الله عليه وسلم .

فقال الشافعى : إن علوم القرآن كثيرة ، فهل تسألنى عن محكمه أو متشابهه أو عن تقديمه أو تأخيره أو عن ناسخه أو منسوخه ، وصار يعرض عليه علوم القرآن ما أعجب به هارون الرشيد والحاضرون وأدهشهم .

فغير الرشيد سؤاله إلى العلوم المتنوعة من فلك وطب وفراسة وما إليها ، فكان الشافعى يجيب على كل سؤال بما يسر الخليفة .

ثم قال الرشيد : عظنى ياشافعى ، فأخذ الشافعى يعظ الرشيد وعظاً تصعدت له القلوب حتى اشتد بكاء الرشيد ، فهاج الحاضرون فنظر إليهم الشافعى غضبا واستمر فى وعظه . وقد حصلت للشافعى فى هذه المحنة محاورات

ومناظرات علمية مع صاحبي أبي حنيفة، وهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن أعرضنا عن ذكر تفصيلها لأن المقام لا يتسع لها وقد تكفلت بها الكتب المؤلفة في مناقب الشافعي .

عودته إلى مكة : بعد أن نجا الشافعي من تلك المحنة التي سبق ذكرها ونال إعجاب الخليفة والتقدير العظيم والإجلال البالغ رأى أن يعود إلى مكة فسافر ووصل إليها سنة ١٨١ هـ وضرب خباءه خارج مكة في ظاهرها فاستقبله أهل مكة استقبالا عظيما ، فقسم بينهم ما جاء به من العراق من ذهب وفضة، عملا بوصية أمه له كلما جاء مكة ثما دخل مكة إلا وقد وزع المال ، فدخلها فارغا كما خرج منها فارغاً .

وأقام في مكة سبع عشرة سنة يعلم الناس وينشر مذهبه بين الحجاج ، وهم ـ بدورهم ـ ينقلونه إلى بلادهم .

رحلته الثالثة إلى العراق : وفي خلال هذه السنوات مات الإمام أبو يوسف في سنة ١٨٢ هـ ومات بعده الإمام محمد بن الحسن سنة ١٨٨ هـ ومات هارون الرشيد سنة ١٩٣ هـ وبويع المأمون بالخلافة واشتهر حبه للعلويين وعطفه عليهم .

فرأى الشافعي أن يعود إلى بغداد وأقام فيها شهراً واحداً وكان يلقي دروسه في جامعها الغربي الذي كان حافلا بالحلقات العلمية التي تربو على عشرين حلقة ، فأصبحت ثلاثة فقط وانضم الباقون إلى حلقة الإمام الشافعي .

وصادف أن ولى المأمون على مصر ، العباس بن موسى (أحد رجال بني العباس) فرأى الشافعي أن يرافقه في السفر من بغداد إلى مصر فخرج أهل بغداد لوداعه وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل فأمسك الشافعي يد ابن حنبل وقال .

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المهامه والقفر
ووالله لا أدري أللعز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

وكأن الشافعي أحس بأنه سيموت ويقبر في مصر فبكى وبكى لفراقه أحمد بن حنبل والمودعون .

وعاد ابن حنبل وهو يقول لأهل العراق : لقد كان الفقه قفلا ففتحه الله بالشافعي ، ورافق الشافعي في رحلته هذه إلى مصر كثير من تلامذته العلماء وفي مقدمتهم ، الربيع بن سليمان المرادي ، وعبد الله بن الزبير الحميدي وغيرهما .

وفي ٢٨ شوال سنة ١٩٨ دخل الشافعي مصر مع العباس بن موسى عامل مصر ووالياها من قبل المأمون ، فأراد العباس بن موسى أن ينزله في داره ضيفا فاعتذر الشافعي ونزل عند أخواله من الأزد اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة المنورة حيث نزل عند أخواله من بني النجار وفي الصباح تواكبت العلماء وتوافدت على الشافعي وفي مقدمتهم عبد الله بن الحكم ، وكان من كبار علماء مصر وأعيانها وممن أملى عليهم الشافعي الموطأ في المدينة ، فرآه خاضبا لحيته بالحناء عملا بالسنة طويل القامة ، جهوري الصوت ، كلامه حجة في اللغة ، عليه دلائل الشجاعة والفراسة ، فوضع بين يديه أربعة آلاف دينار .

ابتدأ الشافعي حياته العلمية في مصر وصار يلقي دروسه بجامع عمرو بن العاص ، فكان يشتغل بالتدريس من الفجر إلى عليه صلاة الظهر وكانت دروسه متنوعة فكان بعد صلاة الصبح مباشرة يحي أهل القرآن فيقرءون عليه

ويسمعون منه ، وإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث ، فإذا كان الضحوة الصغرى قاموا وحضر قوم للمناظرة ثم يجيء أهل العربية والعروض والشعر والنحو ولا يزالون كذلك إلى قرب انتصاف النهار ، وبعد ذلك ينصرف الشافعي إلى داره ومعه بعض تلاميذه كالمزنى ، والربيع الجيزى ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويقول : الدنيا سفر ولا بد للسفر من العصا ، وهو أول من سن سنة العمل فى مصر إلى الظهر ، وكان يشتغل فى التدريس من الفجر إلى الظهر .

وكان العلماء يتلقون عنه العلم فى الجامع وعلى باب داره إلا محمد بن عبدالله بن عبد الحكم فإنه كان يصعد إلى أعلى الدار ويتغدى عند الشافعى ، وإذا نزل أركبه دابته وأتبعه بصره حتى يغيب ، فإذا غاب كان يقول : وددت لو أن لى ولداً مثله وعلىَّ ألف دينار لا أجد لها وفاء .

فتلقى عن الشافعى العلم علماء كثيرون ، منهم الربيع الجيزى (وقد سميت الجيزة باسمه) والبويطى ، وإسماعيل المزنى ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وحرملة التجيبى وغيرهم ، وكلهم صاروا أئمة فى الدين والأدب

ونبغ على الشافعى أيضا نساء كثيرات كالسيدة أخت المزنى التى أخذ عنها العلماء وأدرج اسمها فى جدول كبار فقهاء الشافعية .

وكان الربيع الجيزى أكثر الناس ملازمة للإمام الشافعى .

وكان الشافعى مغرما بقصب السكر ، حتى كان يمازح جالسيه ويقول لهم : ما أقمت فى مصر إلا حبا بالقصب

مكانته العلمية : — كان الشافعى رضى الله عنه حائزاً القدح المعلى فى كل فن ، كان فى العربية مرموق المكانة ويكفى أن الراوية لأشعار العرب « الأصمعى » كان يفتخر حيث تلقى على الشافعى أشعار الهذليين .

ولما قال الشافعى — ذاكراً أقسام المياه — الماء المالح ، انتقده البعض حيث لم يقل « الملح » جرياً مع القرآن (وهذا ملح أجاج) انبرى الزمخشرى راداً على هؤلاء المنتقدين . وبين أن الشافعى حجة فى اللغة وأورد قول الشاعر العربى .

فلو تفلت فى البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

ثم تمثل الزمخشرى وقال .

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

كما أن الشافعى على قدم راسخة فى علم الفلك ، والطب ، والأنواء ، والنجوم المتنقلة فى سيرها وغير المتنقلة ، يعرف هذا كل من قرأ سيرته فى المؤلفات الخاصة فى مناقبه .

حدة ذكائه وفراسته: أما الكلام على ذكائه وحدة فراسته فمتسع الجوانب نذكر منها مسألة واحدة وهى: بينما الشافعى فى مجلسه إذ أتاه آت وقال له :

سل العالم المكى هل فى تزاور وضم لمشتاق الفؤاد جناح ؟

فأجابه الشافعى قائلا :

أقول معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

فلم يفهم الحاضرون المراد من هذه المحاورة ، فأبان لهم الشافعى أنه يسأل عن حكم تقبيل الرجل زوجته فى نهار رمضان ، فأجبوا أن يستيقنوا جلية المسألة فاتبع السائل أحدهم وسأله عما أراد من كلامه مع الإمام فكان الجواب من السائل كما قال الشافعى .

ثناء الأئمة عليه : يروى الخطيب فى « تاريخ بغداد » عن عبد الرحمن بن مهدى عن مالك أنه قال : ما أتانى قرشى أفهم من الشافعى ، وكان سفيان الثورى إذا سئل عن شىء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعى وقال : سلوا هذا ، وأما شيخه مسلم بن خالد الزنجى فإنه قال للشافعى وهو ابن خمس عشرة سنة : قد ـ والله ـ آن لك أن تفتى ، وأما يحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل فكل واحد منهما كان يقول: إنى لأدعو الله للشافعى فى صلاتى منذ أربعين سنة وأستغفر له .

وكان أحمد بن حنبل يقول لابنه : يا بنى كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن فانظر ، هل لهذين من خلف ؟ وأثنى أبو يوسف صاحب أبى حنيفة أيضا على الشافعى وقال : مثلك يصلح للتصنيف .

وما ذكرناه من ثناء الأئمة على الشافعى قل من كثر ، وغيض من فيض ، وقطرة من بحر ، فمن أراد المزيد فعليه بالمؤلفات الخاصة فى مناقب الشافعى وكتب التراجم المطولة .

وليس الشافعى ممن يترجم له فى أوراق أو كراريس وقد أفرد فريق من أجلة العلماء مؤلفات خاصة فى سيرته ومناقبه ولكن أحببنا أن نوضح الخطوط العريضة فى حياة هذا الإمام الذى رضى الله عنه .

مؤلفاته : لما دخل الشافعى المسجد فى بغداد لصلاة المغرب رأى غلاما حسن القراءة يصلى بالناس فصلى الشافعى خلفه فسها الغلام فى الصلاة ولم يعرف كيف يفعل ، فقال له الشافعى : أفسدت صلاتنا يا غلام ، ثم بدأ من حينه فى وضع كتاب فى السهو فى الصلاة ، وقد فتح الله عليه فجاء كتابا كبيرا سماه « الزعفران » نسبة إلى اسم ذلك الغلام الذى سها فى الصلاة . وقد روى هذا الكتاب الحسن بن محمد الزعفرانى وأحمد ابن حنبل وعرف هذا الكتاب بـ « الحجة » وهو أحد الكتب القديمة التى وضعها الشافعى بالعراق ، وألف أيضا فى مصر « الرسالة » وهى أول كتاب وضع فى أصول الفقه ومعرفة الناسخ من المنسوخ بل هو أول كتاب فى أصول الحديث وألف كتابا اسمه « جماع العلم » دافع فيه عن السنة دفاعاً مجيداً وأثبت ضرورية حجية السنة فى الشريعة وكتاب « الأم » و « الإملاء الصغير » و « الأمالى الكبرى » و « مختصر المزنى » و « مختصر البويطى » وغيرها

وكتاب « الرسالة » وكتاب « جماع العلم » حققهما ونشرهما فقيد علم الحديث الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه تعالى الله.

أصول مذهبه : بنى الإمام الشافعى مذهبه على الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، ولم يخرج إلى الاستحسان الذى ذهب إليه الإمام أبو حنيفة . وتحرير القول فى الخلاف بين الحنفية والشافعية فى اتخاذ الاستحسان أصلا فى الشريعة محله كتب الأصول .

اعتزازه بنسبه : كان الشافعى يفخر بنسبه على سبيل التشرف لا على سبيل الاستعلاء على الناس لذلك نجده شديد الحب لآل بيت رسول الله الذى هو منهم أيضا . فلذلك لما رماه الحاسدون بالرفض أنشد وقال .

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض

وهذا التعلق بأهل البيت لم يجره إلى النيل من الشيخين أبى بكر وعمر والطعن فى خلافتهما، بل كان يرى لهما ولغيرهما من الصحابة فضلا فى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله .

معنى الحرية فى نظر الشافعى : كان الشافعى يرى الحرية فى القناعة ، والذل كل الذل فى الطلب والسؤال فيقول .

العبد حر إن قنع ... والحر عبد إن طمع
فاقنع ولا تقنع فلا ... شىء يشين سوى الطمع

فلذلك نجد القناعة والاعتزاز بالرضا بما قسم الله ماثلا فى قوله :

أمطرى لؤلؤ جبال سرندِ ... ب وفيضى آبار تكرور تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى ... نفس حرة ترى المذلة كفرا

دخل على الشافعى طالب بعد انتهاء الدرس وقال له : أوصنى
فقال الشافعى : يا بنى خلقك الله حراً فكن كما خلقك

وفاته : أقام الشافعى فى مصر خمس سنين وتسعة أشهر من ٢٨ شوال سنة ١٩٨ هـ إلى ٢٩ رجب سنة ٢٠٤ هـ يعلم الناس ويؤلف ثم أصابه نزف شديد بسبب البواسير فاشتد به الضعف فلم يستطع الخروج لمزاولة التدريس فزاره تلميذه « المزنى » فسأله عن حاله فقال : أصبحت ـ والله ـ لا أدرى ، أروحى تساق إلى الجنة فأهنئها ، أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم رفع بصره إلى السماء وقال أبياتاً ، منها :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وبعد ذلك نظر إلى من حوله من أهله وقال لهم : إذا أنا مت فاذهبوا إلى الوالى واطلبوا منه أن يغسلنى .

وفى ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنه ٢٠٤ هـ بعد العشاء الأخيرة فاضت روحه الطاهرة إلى باريها بين يدى تلميذه « الربيع الجيزى » وانتشر خبر وفاته فى مصر فعم أهلها الحزن فخرجوا يريدون حمله على أعناقهم وهم فى اضطراب من شدة الزحام .

وأصبح يوم الجمعة وذهب أهله إلى الوالى وطلبوا منه الحضور لغسل الإمام كما أوصى ، فقال لهم الوالى : هل ترك الإمام دينا ؟ قالوا : نعم ، فأمر الوالى بقضاء ذلك الدين ، ثم نظر إليهم وقال لهم : هذا معنى غسلى له وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة فلما وصلت شارع السيدة نفيسة الآن خرجت السيدة نفيسة وأمرتهم بإدخال النعش إلى بيتها فصلت عليه وترحمت ، ثم سير بالجنازة إلى القرافة الصغرى المعروفة وقتئذ بتربة أولاد عبد الحكم وفيها دفن الشافعى وعرفت بعد دفنه بتربة الشافعى إلى وقتنا هذا :

ورثى الشافعى خلق كثير بعد وفاته نذكر بيتين لابن دريد الأزدى صاحب المقصورة من قصيدته العصماء قال :

تسربل بالتقوى وليداً وناشئاً ... وخص بلب الكهل مذهو يافع
فآثاره فينا بدور زواهر ... وأحكامه فينا نجوم طوالع

رحم الله الشافعى ورضى عنه وأمطر على جدثه الطاهر شآبيب الرحمة والرضوان .